لفظ " السبيل" في القرآن الكريم دراسة دلالية وبلاغية

مريم محمد الشيخ علي

ملخص الدراسة

الحمد لله الذي جعل لكل شيء سببا، وأنزل على عبده الكتاب عجبا، فيه من كل شيء حكمة ونبأ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف الخليقة عَجماً وعَرباً، وأزكاهم حسباً ونسباً، وعلى آله وأصحابه السادة النُّجُبا، أما بعد:

إن القرآن الكريم هو معجزة الله الخالدة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، والذي لا ينقطع معينه مهما تقدمت الأزمان، لا بل يزيد بهاءً وإقناعاً كل ما تقدم العقل البشري في شتى علوم الدنيا والدين ؛ لذلك تعددت الدراسات التي تتناول كتاب الله Y بالتفصيل والتحليل، خاصة فيما يتعلق بدراسة الألفاظ والتراكيب دراسة دلالية ولغوية، وفي هذه الدراسة سأحاول الوقوف على معاني ودلالات لفظ " السبيل " في القرآن الكريم، حيث تكرر اللفظ حوالي ١٥٦ مرة بدلالات وهيئات لغوية مختلفة وذكرت في معظم أجزاء القرآن الكريم.

أسباب اختيار الموضوع:

× تعدد السبل في زمن ادلهمت به الخطوب، وتفرعت سبل الحياة التي تتقمص مصطلح الإسلام وحادت عن سبيل الله (فما هو سبيل الله المستقيم؟

× وما هي صور سبيل الله التي شرعها الله سبحانه وتعالى؟

× وما دلالة إضافة لفظ السبيل لصفات متعددة كالغي والرشد والمفسدين والمسلمين، وتارة نكرة وتارة معرف ب (ال) وغيرها من الهيئات؟

× كل هذه التساؤلات وغيرها دفعتني لدراسة هذا اللفظ في القرآن الكريم دراسة دلالية بلاغية.

منهج البحث:

تشمل حصر جميع الآيات التي تحتوي على لفظ " السبيل"، ودراستها دراسة تحليلية تفكيكية، تربط مستويات اللسانيات العربية، وتربطها بعلوم العربية الأخرى كالبلاغة والصرف والنحو وغيرها.

خطة البحث وتنظيمه:

سأحاول في هذه الدراسة – إن شاء الله – الوقوف على المستويات اللسانية للفظ " السبيل " في القرآن الكريم، وهي:

× إبراز الدلالة اللغوية لهذه الكلمة كما وردت في المعاجم العربية وفي أقوال العرب نظماً ونثراً وانعكاساتها على معانيها في القرآن الكريم.

× وسنقوم – إن شاء الله – أيضاً بدراستها من الناحية الصوتية، ونحاول أن نبين العلاقة بين أصوات كلمة " سبيل" بالمعنى الدلالي الذي تحمله الكلمة بربطه بالمخرج والصفات التي تحملها الأصوات.

× كما أننا سندرس الألفاظ الواردة في القرآن الكريم دراسة صرفية تتضمن حالات واشتقاقات الكلمة وما تدل عليه.

× ثم نعرج على الناحية النحوية فنذكر الحالات التي وقعت فيها الكلمة ومشتقاتها، ودلالة ذلك على المعنى العام لسياق الآية، والسياق الخاص بما تحمله من دلالات.

× كما سنتناول الجانب الدلالي ونحصر مقامات ورود الكلمة ودلالاتها المختلفة والمقامات التي يستعمل فيها لفظ "سبيل" مستعينة في ذلك كله بالآيات القرآنية، وأقوال العلماء والمفسرين.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

المادة المعجمية للفظ "سبيل":

الجذر الثلاثي للفظ "سبيل" هو "س ب ل"، وله معانٍ عدة في اللغة العربية ومنها: الطريق، والجهاد، والمسافر، والمطر، والسنبل، والإرسال – من أسبل الفرس ذيله – وغيره من المعاني، ولست في هذا البحث بصدد إعادة ما ذكر في المادة المعجمية فقد فصل فيه العلماء وأبانوا، لكن الملاحظ على المعاني اللغوية التي يدور حولها معنى السبيل أنها تضم صفات مشتركة وأهمها:

١- الوضوح: جاء في لسان العرب "السبيل: الطريق وما وضح منه" (١)، ويقول الله (: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ((يوسف/ ١٠٨)، وفيه إشارة أن السبيل هو الطريق الواضح.

٢- الإباحة: فلفظ السبيل يدل على الإباحة، "وسبَّلت الشيء إذا أبحته كأنك جعلت إليه طريقاً مطروقة "(٢)، فهو بذلك السبيل الواضح المباح.

٣- الطول والامتداد: "وَرَجُلٌ سَبَلانيٌّ ومُسْبِلٌ ومُسَبَلٌ ومُسَبِّلٌ وأَسْبَلُ: طَوِيلُ السَّبَلة، وعَيْن سَبْلاء: طَوِيلَةُ الهُدْب... والمُسْبِل: الذَّكَرُ، وخُصْية سَبِلةٌ: طَوِيلَةٌ " (٣)، جاء في مقاييس اللغة: "السين والباء واللام أصل واحد يدل على إرسال شيء من علو إلى سفل، وعلى امتداد شيء" (٤)، كما يتمثل معنى الامتداد في إسبال الثوب والمطر في قول العرب: أسبلت السماء بمعنى المطر، "وَالاسْمُ السَّبَلُ، وَهُوَ الْمَطَرُ بَيْنَ السَّحَابِ والأَرض حِينَ يَخْرج مِنَ السَّحَابِ وَلَمْ يَصِلْ إِلى الأَرض"(٥) فدل ذلك على أن سبب تسمية المطر بالسبيل؛ لأنه يمتد من علو إلى أسفل ويطول حتى يصل الأرض.

الناحية الصوتية لكلمة " السبيل ":

حروف اللغة العربية حية كما الكلمات، مخارجها ومعانيها ومضامين الأصوات فيها تجلي روعاتها، وفي هذا المبحث سندقق في الأصوات التي يتكون منها لفظ السبيل، والمتمثلة في أصوات: السين والباء والياء المدية واللام، وما يحدثه من تناسق بينها وعلى مجرى الهواء والنفس حين النطق بها مجتمعة:

١- صوت السين: مخرجه ينطلق فيه الصوت بأن يعتمد طرف اللسان خلف الأسنان العليا مع ارتفاع مقدمته بالنسبة للثة العليا مع وجود منفذ ضيق للهواء ويحدث الاحتكاك أي يرفع أقصى الحنك حتى مرور الهواء من الأنف ولا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به، فيصير الصوت لثوياً احتكاكياً مهموساً"(٦).

٢- صوت الباء: يخرج من انطباق الشفتين، فهو صوت شفوي، وهو شديد ومجهور كذلك.

٣- صوت الياء المدية: يخرج من الجوف كما بين ذلك علماء التلاوة والتجويد، وتعتبره الدراسات الصوتية الحديثة صوتاً صائتاً، وحركة طويلة وهي امتداد للكسرة.

٤- صوت اللام: مخرجه "من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان من بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى، مما فوق الضاحك و الناب والرباعية والثنية، وهذا يوافق ما يمكن أن يطلق عليه صوت لثوي – حنكي، أو لثوي مع صفات أخرى تنتج عن مرور الهواء من جانبي الفم " (٧).

وصوت اللام متوسط بين الشدة والرخاوة، وهو حرف ذلقي يخرج من طرف اللسان ويسهل النطق به.

لو رسمنا خط سير الهواء عند النطق بكلمة "سبيل" يمكن أن نوضحه بالتخطيط التالي:

طرف اللسان مع ما بين الأسنان ← الشفتين ← جوف الفم

طرف اللسان مع الحنك الأعلى ←

ولعل أبرز ما يمكن أن نشير إليه هو أن وضع اللسان يتحرك من طرفه في صوت السين إلى أدناه في صوت اللام، وهو ما يتناسب مع المعنى الذي تحمله المادة المعجمية للفظ السبيل وهو الانسياب من علو إلى أسفل – كما ذكر ابن فارس في مقاييس اللغة –، فتأمل روعة التناسق بين النطق والمعنى.

كما أنه يبدأ بصوت السين وهو احتكاكي رخو أي يكون مجرى النفس مفتوحاً وينتهي باللام وهو حرف متوسط بين الشدة والرخاوة

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

فمجرى الهواء ليس مسدوداً بشكل تام، فهل يمكن اعتبار ذلك أن السبيل يكون في بدايته مفتوحاً مباحاً لمن أراد الدخول فيه ونهايته معروفة تصل إلى طريق بيِّن، لكن الخلاص منه ممكن وسبيل الرجعة منه متاح؟ !

وتأمل قول الله تعالى وهو يصف حال الكافرين يوم القيامة فيقول: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (×) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ((غافر/١١)، فاستعمل لفظ "السبيل" على أمل الخروج ولم يستعمل لفظاً آخر مماثل له في المعنى كطريق أو وسيلة، وكذلك في قول الله تعالى: (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ((الشورى/ ٤٤)، "أي: من رُجُوع إِلَى الدُّنْيَا ليتوب"(٨).

ولعله يمكن اعتبار صوت الباء الذي يتوسط لفظ السبيل، على ما فيه من الشدة والإطباق والقلقلة عند الوقف عليه ما يدل على يعترض السائر في السبيل من خطوب وصعاب وقلاقل تنازعه لترده عن سبيله.

وصوت الياء المدية التي ينتشر معها الهواء في جوف الفم تدل على الانتشار والتوسع وهو ما يتناسب مع السبيل خاصة في وسطه حيث الفضاء الرحب الذي يسير فيه السابلة ليصلوا إلى مبتغاهم.

عند النظر للمقاطع الصوتية التي يتشكل منها لفظ " سبيل " نجده يتكون من مقطعتين: مقطع قصير مفتوح (ص ح)، ومقطع طويل مغلق (ص ح ح ص)، وهو ما يؤكد ما أشرنا إليه من دلالات للفظ السبيل، والذي يتميز بالطول والامتداد وكذلك الوضوح.

الناحية الصرفية:

أهم ما يشار إليه في هذا الجانب أمور عدة هي:

- التذكير والتأنيث:

فلفظ السبيل يذكر ويؤنث في العربية، وقد ورد في القرآن الكريم بالحالتين وإن غلبت حالات المؤنث على المذكر، فمن أمثلة المذكر قول الله : (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(

(آل عمران/٧٥)، " وَالسَّبِيلُ، قِيلَ: الْعِتَابُ وَالذَّمُّ. وَقِيلَ: الْحُجَّةُ... وَقِيلَ: السَّبِيلُ هُنَا الْفِعْلُ الْمُؤَدِّي إِلَى الْإِثْمِ... وَيَقُولُونَ: لَيْسَ عَلَيْنَا بِذَلِكَ بَأْسٌ" (٩)، وجاء مذكراً في ثلاثة مواضع أخرى(١٠).

وأما حالات التأنيث فجاءت في عشرة مواضع(١١) ومنها قوله : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ... ((آل عمران/ ٩٩)، "وَقَوْلُهُ: تَبْغُونَها عِوَجاً أَيْ تَبْغُونَ السَّبِيلَ فَأَنَّثَ ضَمِيرَهُ لِأَنَّ السَّبِيلَ يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ" (١٢).

- الجمع والإفراد والتثنية:

ورد لفظ السبيل على الأغلب مفرداً، وفي عشرة مواضع جاء جمعاً(١٣)، بينما لم يأت في القرآن الكريم على صيغة المثنى، ومن أمثلة الجمع، قول الله : (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ((المائدة/ ١٦).

وأبرز ما يمكن الإشارة إليه أن سبيل الله المتمثل بالحق جاء مفرداً في معظمه، والله (يحذر المؤمنين من التفرق والتشتت في مغبة السبل المضلة عن سبيل الله، يقول الحق تبارك وتعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ((الأنعام /١٥٣)، إلا أن سبيل الله يتفرع عنه سبل داخله ؛ ولذلك يقول الله تبارك وتعالى على لسان رسله : (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ((إبراهيم/ ١٢)، ويقول سبحانه وتعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ((العنكبوت/ ٦٩).

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

إن سبل السلام متعددة، فالجهاد بالنفس سبيل الله، والإنفاق في وجوه الخير سبيل الله، والإحسان بالطاعات سبيل الله، والكلمة الحق سبيل الله...

وأما مواضع الجمع الأخرى فهي تدل على السبل المحسوسة التي يسلكها الإنسان في الأرض، وقد اقترن ذكرها بلفظ الأرض، ومثال ذلك قول الله (: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ((طه/ ٥٣)، "وَالْمُرَادُ بِالسُّبُلِ: كُلُّ سَبِيلٍ يُمْكِنُ السَّيْرُ فِيهِ سَوَاءٌ كَانَ مِنْ أَصْلِ خِلْقَةِ الْأَرْضِ كَالسُّهُولِ وَالرِّمَالِ، أَوْ كَانَ مِنْ أَثَرِ فِعْلِ النَّاسِ مِثْلَ الثَّنَايَا الَّتِي تَكَرَّرَ السَّيْرُ فِيهَا فَتَعَبَّدَتْ وَصَارَتْ طُرُقًا يُتَابِعُ النَّاسُ السَّيْرَ فِيهَا"(١٤).

- التعريف والتنكير:

تنوعت حالات لفظ " السبيل " في القرآن الكريم من حيث التعريف والتنكير، فجاءت معرفة ب (أل) التعريف في ثلاثين موضعاً، ومعرفة بالإضافة إلى لفظ الجلالة (سبيل الله) في ستة وستين موضعاً، ومعرفة بالإضافة لغير لفظ الجلالة في أحد عشر موضعاً، ومضافة إلى ضمير في تسعة عشر موضعاً، وجاءت نكرة في أربعين موضعاً، ومن أبرز الملاحظات على هذه المواضع:

- ارتبط لفظ القتال والإنفاق مع (سبيل الله)، يقول (: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ((البقرة / ١٩٠)، وفي ذات السياق يقول (: (أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ((البقرة/ ١٩٥)؛ ولذلك غلب على مفهوم (سبيل الله) الجهاد في أقوال المفسرين للقرآن.
- أضيف لفظ السبيل لجهات متباينة، فهناك سبيل المؤمنين: (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (، وهناك سبيل للمجرمين، قال الله سبحانه وتعالى: (وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ((الأنعام/٥٥)، وهناك سبيل للرشد وسبيل للغي، قال تعالى: (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ((الأعراف/١٤٦) وكل يدعو إلى سبيله، والفوز والنجاة لمن يتخذ سبيل الله ملجأ وملاذاً.
- جُلُّ المواضع التي جاء فيها لفظ " السبيل " مضافاً إلى الضمير، كانت متصلة بضمير الغائب " ه " – في اثنا عشر موضعاً- وهو عائد على الله عزو جل، يقول تبارك وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ((المائدة / ٣٥)، وذكر مضافاً لضمير يعود على لفظ الجلالة بصيغة المتكلم في ثلاثة مواضع، منها قول الله تعالى: "قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ"، واتصل اللفظ بضمير المتكلم على لسان حال الكافرين، يقول الله (: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ((العنكبوت/ ١٢)، كما جاء مضافاً لضمير لفظ الجلالة بصيغة المخاطب في موضع واحد في قوله (: (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ((غافر/٧).
- يلاحظ أن لفظ السبيل المضاف إلى لفظ الجلالة، كلها ذكرت بلفظ الألوهية " الله " ما عدا موضعين بلفظ الربوبية " ربك " وذلك في سورة النحل، يقول الله تعالى: (ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ((النحل/ ٦٩)، ويقول الحق في ذات السورة: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ((النحل/ ١٢٥)، وتأمل أيها القارئ العزيز، فارق اللفظين مع مطابقة المقام، فالمرء حين يهب نفسه وماله ووقته ابتغاء وجه خالقه الإله الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأما في مقام الدعوة فتتجلى الرحمة الربانية لرب الكون، فالرب رحيم حريص على عباده؛ ولذلك جاء لفظ " ربك " مع الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، كما جاء مع لفظ الربوبية في مقام الحديث عن شراب فيه شفاء للناس، وهو دواء من رب العباد، فتأمل يا رعاك الله !

يجدر الإشارة إلى أن لفظ السبيل لم يأت في القرآن إلا على صيغة واحدة وهي لفظ " السبيل " ولم تتنوع مشتقاته إلا في لفظ "

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

سنبلة "، "وسنبل" و "سنابل " و "سنبلات "على أصل أنها من مادة " سبل " في سورتي البقرة ويوسف.

الناحية النحوية والتركيبية:

ورد لفظ السبيل في القرآن الكريم مجروراً في أربعة وتسعين موضعاً، بينما ورد منصوباً في اثنين وخمسين موضعاً، وجاء مرفوعاً في ستة مواضع فقط، وإليك جزءٌ من التفصيل:

أغلب حالات الجر كانت مجرور بحرف الجر "في" والذي يحمل معنى الظرفية المكانية، وكانت مرتبطة بمصطلح " سبيل الله "، فالقتال والجهاد والنفقة والهجرة وعمل الخيرات كله واقع في سبيل الله، وتليها لفظ السبيل المجرور بحرف الجر "عن" والذي يحمل معنى المجاوزة، وقد اقترن اللفظ بالفعل " صد " في حوالي أربعة وعشرين موضعاً ومن هذه المواضع، قول الله (: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ((الأنفال /٣٦)، وقول الله (: (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ((الرعد /٣٣)، وقول الله تبارك وتعالى: (وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ((النحل/ ٩٤)، وقول الحق تبارك وتعالى: (وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ((العنكبوت/ ٣٨)، ويقول الله أيضاً: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ × اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ((المنافقون/ ٢).

وتأمل يا رعاك الله المواضع التي انتقيتها، وحال الفعل "صد" فيها فجاءت مبينة للمعلوم بضمير الغائب " لِيَصُدُّوا" وهم الذين كفروا، وجاءت مبنية للمجهول بضمير الغائب " وصُدُّوا"، وجاءت مبنية للمعلوم بضمير المخاطب "صَدَدْتم"، وجاء الفعل متصلاً بضمير يعود على الشيطان، وهذا إن دلّ فإنه يدل على أن الصدود عن سبيل الله يكون بفعل فاعل من أهل الإنس من الكافرين والمنافقين، أو من تلقاء النفس البشرية، أو من تزيين الشيطان وإغواءه، نسأل الله الثبات.

كما جُر لفظ السبيل بحرف الجر " عن " مع الفعل " ضلَّ" في تسعة مواضع، ومنها قول الله (: (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ × إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ((الأنعام /١١٦-١١٧)، وفي قول الله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ × ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ((الحج /٨-٩)، وفي قول الله عزو جل: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ((لقمان/ ٦)، وقول الله في سورة النجم: (فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا × ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ((النجم/ ٢٩-٣٠).

إن المتأمل الآيات الكريمة يلاحظ أن الضلال عن سبيل الله يكون من الناس باتباعهم الظن، وابتاع أكثر الناس أو بالمجادلة المبنية على الجهل، أو لهو الحديث، حتى أن الله أشار إلى الضلال عن السبيل في سورة القلم، يقول الله (: (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ((القلم/ ٧)، وهذا يدل على أن أكثر المضللين هم من أصحاب الكلمة والقلم، الذين أعرضوا عن ذكر الله وما نزل من الحق، واتخذوا من الباطل حجة ومقاماً ؛ لتضليل الناس وثنيهم عن سبيل الحق، عافانا الله وإياكم، وألهم الأمة الإسلامية من يهديها إلى سبيل الرشاد.

وجاء في موضع واحد مجروراً ب " عن" مع الفعل " تفرَّق " في قول الله – جل وعلا –: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ((الأنعام/ ١٥٣)، وتأمل الفعل " تفرق" جاء في سياق المقارنة والمفاضلة بين سبيل الله، وسبل أهل الباطل، والفرق خلاف الجمع، فلا يمكن لسبيل الله أن يجتمع مع سبيل الباطل.

كما جاء لفظ " السبيل " مجروراً بحرف الجر " من " في ثلاثة مواضع في سور: التوبة وغافر والشورى، وقد سبقت الإشارة لموضعي غافر والشورى في الناحية الصوتية، أما موضع سورة التوبة في قول الله تعالى: (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ((التوبة/٩١)، " فقوله «مِنْ سبيل» فاعلٌ بالجار قبله لاعتماده على النَّفْي، ويجوز أن يكون مبتدأ، والجار قبله خبره، وعلى كلا القولين ف «مِنْ» مزيدةٌ فيه، أي: ما على المحسنين سبيل، والمعنى: أنَّهُ لا إثم عليه بسبب القعود عن الجهاد" (١٥)، وهذا يعني أنه مجرور لفظاً مرفوع محلاً.

جاء لفظ " السبيل" مجروراً بحرف الجر " إلى" في موضع واحد في القرآن، في قول الله (: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ((النحل/١٢٥)، حرف الجر "إلى" يفيد انتهاء الغاية المكانية، فالدعوة تهدف في نهاية المطاف إلى الإرشاد والهداية إلى سبيل الله.

أما مواضع الجر المتبقية فجاء فيها لفظ السبيل مضافاً إليه – عدا لفظ ابن السبيل التي تعني المسافر–، وذلك في عشرة مواضع ومنها، قول الله (: (أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ((البقرة / ١٠٨)، وقوله تعالى: (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ((النساء / ١١٥).

(أغلب مواضع النصب كانت مفعولاً به، ومن أمثلته قول الله (: (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ((النساء/١٥)، وقول تالله تعالى: (قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ((يونس/ ٨٩)، ويقول الحق تبارك وتعالى: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ((الإسراء/ ١١٠)، وفي قول الله (: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (، وفي قول الله (: (إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ((المزمل/ ١٩)، فالسبيل يُجعل ويُتَّبع ويُسلك ويُتَّخذ كما هو واضح من الآيات الكريمة المذكور أعلاه، والله يدعو لاتباع سبيله، وأهل الباطل يدعون لاتباع سبيلهم يقول الحق تبارك وتعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ((العنكبوت / ١٢).

وجاء لفظ " السبيل " تمييزاً في ثمانية مواضع من القرآن الكريم، منها قول الله (: (وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ((النساء/٢٢)، وقول الله (: (إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ((الفرقان / ٤٢)، ويقول الحق تبارك وتعالى: (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ((الإسراء/ ٨٤).

كما جاءت منصوبة على نزع الخافض في عدة مواضع منها: قول الله تبارك وتعالى: (أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ((البقرة / ١٠٨)، وقول الله (: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ((النساء / ٤٤)، وفي قول الله (: (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ((الفرقان / ١٧)، وقول الله (:

(وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (، وقوله (: (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ((الأحزاب / ٤)، وتعدد وجه الإعراب في قول الله (: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ((النساء/ ٣٤)، " في " تَبْغُوا " وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: هُوَ مِنَ الْبَغْيِ الَّذِي هُوَ الظُّلْمُ؛ فَعَلَى هَذَا هُوَ غَيْرُ مُتَعَدٍّ، وَ (سَبِيلًا): عَلَى هَذَا مَنْصُوبٌ عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ حَرْفِ الْجَرِّ؛ أَيْ: بِسَبِيلٍ مَا، وَالثَّانِي: هُوَ مِنْ قَوْلِكَ بَغَيْتُ الْأَمْرَ؛ أَيْ: طَلَبْتُهُ؛ فَعَلَى هَذَا يَكُونُ مُتَعَدِّيًا وَ " سَبِيلًا " مَفْعُولُهُ " (١٦).

قد بين علماء اللغة بلاغة نزع الخافض ضمن حديثهم عن بلاغة الحذف، وذكروا دواعيه ومنها: التوسع، وأمن اللبس، والاختصار، وكثرة الاستعمال وغيرها... لكن " للسياق القرآني دوراً فعالاً في كشف النقاب عن العلة التعبيرية من نزع الخافض، فلا يمكن أن يكون

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

التخفيف أو الاختصار أو التوسع أو غيرها سبباً وحيداً يدعو إلى الحذف، بل السياق القرآني ضمن الآية على وجه الخصوص والسورة على وجه العموم هو الذي يدعم المتطلبات المذكورة آنفاً إلى الحذف " (١٧)؛ لذلك فإن الوقوف عند كل آية من مواضع نزع الخافض وفق السياق القرآني مبحث جم الفائدة، واسع المسلك لمن أراد أن يتدبر كتاب الله.

(حالات الرفع للفظ "سبيل" كانت الأقل وروداً في القرآن الكريم، فجاءت مرفوعة في ستة مواضع فقط، وكانت مبتدأً في موضعين(١٨)، وخبراً للمبتدأ في موضع(١٩)، واسماً لليس في موضع(٢٠)، وخبراً لإنَّ في موضع(٢١)، وفاعلاً في موضع واحد أيضاً.

يمكن الإشارة إلى الموضع الذي جاء فيه السبيل فاعلاً، وهو موضع فريد في القرآن الكريم، فالسبيل من الطريق الذي يسلكه الناس، ومن المنطق أن يكون مفعولاً، كما ذكرنا في حالة النصب، لكن في هذا الموضع جاء السبيل فاعلاً في قول الله (: (وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ((الأنعام/٥٥)، "بهذا الإنذار، تستبين سبيل المجرمين، عند مفرق الطريق، ويتضح الحق والباطل، وينكشف الغموض والوهم حول طبيعة الرسول وحول حقيقة الرسالة، كما ينكشف الغموض حول حقيقة الهدى وحقيقة الضلال، وتتم المفاصلة بين المؤمنين وغير المؤمنين في نور وفي يقين"(٢٢)، ولعله من شدة وضوح سبيل المجرمين، وبعده عن سبيل الله يكشف ويبين عن نفسه، ولا حاجة لمن يكشفه، وهذه هي سنة الله في مصير المجرمين، فتأمل يا رعاك الله.

أما من الناحية التركيبية، فلا يخفى على أهل اللغة توالد التراكيب النحوية في اللغة العربية، حتى لا تكاد تحصر صور الجملة وتراكيبها، ولفظ السبيل جاء في تراكيب متنوعة، لا يتسع المجال لحصرها، والوقوف عندها بتأن يستحق الدراسة وسيكون ذخراً وفيراً يثري معاني النحو ونظرية النظم لا شك، وإليك عزيزي القارئ بعض الإشارات بمثال لمواضع السبيل في سورة المائدة، يقول الله (: (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ((المائدة / ١٢)، " فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلك مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ أَيْ بَعْدَ ذَلِكَ الْمِيثاقِ الْمَأْخُوذِ وَالشَّرْطِ الْمُؤَكَّدِ فَقَدْ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ. وَسَوَاءُ السَّبِيلِ وَسَطُهُ وَقَصْدُهُ الْمُؤَدِّي إِلَى الْقَصْدِ، وَهُوَ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ "(٢٣)، ونلاحظ أن الجملة مؤكدة (بقد) وجاء الفعل بصيغة الماضي ومعه لفظ "سواء" الذي يعني الوسط، ثم جاء النص القرآني بلفظ سبيل في السورة ذاتها، يقول الحق تبارك وتعالى: (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ((المائدة/ ٦٠)، وقد جاء الفعل "أضلُّ" بصيغة التفضيل، ثم يؤكد الله ضلال أهل الكتاب وإضلالهم فيقول الحق تبارك وتعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ((المائدة / ٧٧).

هذه المواضع وغيرها بحاجة إلى دراسة مستفيضة مع الاعتناء بالسياق القرآني والدلالي للوقوف على دقائق المعاني واللطائف.

كما لفت انتباهي للتبادل اللفظي بين " فجاجاً سبلاً "، و" سبلاً فجاجاً "، ذلك في قوله (: (وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ((الأنبياء/ ٣١)، " وجعلنا فيها: أي في الرواسي فجاجا سبلا أي مسالك وطرقا نافذة واسعة، لعلهم يهتدون:أي ليهتدوا بها إلى مصالحهم ومقاصدهم في الأسفار والزراعة " (٢٤)،" و(الْفَجُّ) بِالْفَتْحِ الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ وَالْجَمْعُ (فِجَاجٌ) بِالْكَسْرِ" (٢٥)، واختلف العلماء في إعراب الكلمة، فمنهم من أعرب "فجاجا حال؛لأنه كان صفة لسبلاً وتقدم عليه وسبلا مفعول به" (٢٦)، ومنهم من قال: "«سُبُلًا» بدل من «فِجَاجًا»" (٢٧)، وفي قول الله (: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (نوح/٢٠)، " «سُبُلًا» مفعول به «فِجاجاً» صفة وتعني فجاجا واسعا" (٢٨).

ولعل تقديم لفظ فجاج مع الرواسي أنسب وأدق لأن الفجاج طريق بين الجبال يصير سبيلاً، أما مع الأرض المنبسطة فهي سبل تصير واسعة كفجاج الجبال، ولله في خلقه شؤون.

الناحية الدلالية:

• حمل لفظ " السبيل " في القرآن الكريم معانٍ دلالية متنوعة ومتعددة، وفي هذا البحث المتواضع سأحاول الوقوف على أبرز هذه

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الدلالات والمعاني، ليتضح المقام الذي ذكرت فيه، وإليك أمثلة متنوعة لمعانٍ متباينة للفظ السبيل في القرآن الكريم، ومنها قول الله (: (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ((الأحزاب / ٦٧)، " «فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا» ويقال أيضا في الكلام، أضلني عن السبيل ومجازه عن الحق والدين"(٢٩).

ويقول (: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ((آل عمران/ ٧٥)، " سَبِيلٌ: إثم وحرج، دليله قوله: (ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ((التوبة/ ٩١)، وذلك إنّ اليهود قالوا لا حرج علينا في حبس أموال العرب قد أحلّها الله لنا لأنّهم ليسوا على ديننا " (٣٠).

ويقول الله (: (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ((النساء/ ١٥)، "ومعنى أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا أَيْ حُكْمًا آخَرَ. فَالسَّبِيلُ مُسْتَعَارٌ لِلْأَمْرِ الْبَيِّنِ بِمَعْنَى الْعِقَابِ الْمُنَاسِبِ تَشْبِيهًا لَهُ بِالطَّرِيقِ الْجَادَّةِ" (٣١).

ويقول الحق أيضاً: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ((النساء/ ٣٤)، "وَالسَّبِيلُ حَقِيقَتُهُ الطَّرِيقُ، وَأُطْلِقَ هُنَا مَجَازًا عَلَى التَّوَسُّلِ وَالتَّسَبُّبِ وَالتَّذَرُّعِ إِلَى أَخْذِ الْحَقِّ " (٣٢).
ويقول الله تعالى: (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ((الإسراء/٤٢)، "وَابْتِغَاءُ السَّبِيلِ: طَلَبُ طَرِيقِ الْوُصُولِ إِلَى الشَّيْءِ، أَيْ تَوَخِّيه وَالِاجْتِهَاد لِإِصَابَتِه، وَهُوَ هُنَا مَجَازٌ فِي تَوَخِّي وَسِيلَة الشَّيْءِ" (٣٣).

ويقول الحق أيضاً: (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ((التوبة/٥)، "وَهَذَا الْمُرَكَّبُ مُسْتَعْمَلٌ هُنَا تَمْثِيلًا فِي عَدَمِ الْإِضْرَارِ بِهِمْ وَمُتَارَكَتِهِمْ، يُقَالُ: خَلِّ سَبِيلِي، أَيْ دَعْنِي وَشَأْنِي، كَمَا قَالَ جَرِيرٌ:

خَلِّ السَّبِيلَ لِمَنْ يَبْنِي الْمَنَارَ بِهِ وَابْرِزْ بِبَرْزَةَ حَيْثُ اضْطَرَّكَ الْقَدَرُ

وَهُوَ مُقَابِلٌ لِلتَّمْثِيلِ الَّذِي فِي قَوْلِه:
وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ"(٣٤).

ويتضح من النماذج المعروضة آنفاً أن السبيل يتسع معناه ويشمل معان عدة غير الطريق المحسوس أو الجهاد أو عمل الخيرات.

• إن المقامات التي ذكر فيها السبيل، أوسع من أن يتسع لها هذا البحث المتواضع فقد ذكر في أكثر من مائة وخمسين موضعاً وتوزع على كامل أجزاء المصحف، لكن أود الإشارة إلا أن لفظ السبيل، تكرر في سور معينة بشكل ملحوظ دون غيرها من السور، والتي كان أكثرها في سورة النساء حيث تكرر اللفظ خمساً وعشرين مرة، تليها سورة التوبة بخمس عشرة مرة، وفي سورتي الإسراء والفرقان تكرر اللفظ سبع مرات، ولعلي ألتمس موضع البيان في هذا التكرار، وهو تناغم اللفظ مع مقاصد السور، فتمحورت مقاصد سورة النساء حول العدل الاجتماعي وإحقاق الحق مع كافة فئات وأطياف المجتمع، وسبيل الله هو الضامن لهذا العدل، ففيه الإخلاص وفيه الذود عن حمى الإسلام يقول الحق تبارك وتعالى: (فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا × وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ((النساء/ ٧٤-٧٥).

وهناك لطيفة أخرى وهي أن النساء معول مهم في السير على خطى سبيل الله، هي أم المجاهد وأخته ورفيقة دربه، ولا يخفى عليكم دور المرأة في مواطن الوغى على مر التاريخ الإسلامي، ولا ننسى دور المرأة الفلسطينية في تاريخ نضال الشعب الفلسطيني منذ الاحتلال حتى يومنا هذا.

أما سور التوبة فهي سورة تتمحور حول موضوع الجهاد في سبيل الله، وتوضح أركانه وشروطه وضوابطه وأهمها ما كان خالصاً لوجهه وفي سبيل الله، وتأمل يا رعاك الله مقاصد سورة الإسراء وموضوعها وسبيل الله وكذلك سورة الفرقان، ألهمنا الله وإياكم سبيل الرشاد

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

وجعلنا من المهتدين.

• أغلب ألفاظ "سبيل" التي ذكرت في القرآن الكريم، كانت تحمل معنى الطريق المعقول لا المحسوس، كسبيل الله، وسبيل المؤمنين، وسبيل المجرمين، وسبيل الهدى، وسبيل الضلال، وغيرها من المعاني، بينما حمل المعنى المحسوس للسبيل بمعنى الطريق في عشرين موضعاً فقط، منها تسعة مواضع في لفظ " ابن السبيل " الذي يقصد المسافر، والمواضع الباقية بمعنى الطريق الذي يسلكه الناس بأجسادهم، وذلك في قول الله تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ((طه /٥٣).

الخاتمة:

إن السبيل هو الطريق، وسبيل الله سبيل الحق، وهو الطريق الجادة إلى ما فيه النفع من العقائد السليمة والأعمال الصالحة، والتي تقصد بالإنسان الفوز بالجنة والنجاة من النار، وفي هذا الطريق يتعثر الإنسان بعقبات تصده،وإن لم تستطع تحاول أن تضله، والفوز والنجاة لمن تشبث بسبيل الله ولم يتبع الهوى، والله يعينه ويرشده إلى جادة الصواب، فالله سبحانه وتعالى ذكر السبيل في أول موضع في سورة البقرة في قوله تعالى: (أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ((البقرة / ١٠٨)، ليحذر من مغبة الضلال، لكنه يختم ذكره لفظ السبيل في سورة عبس في قول الله تبارك وتعالى:(مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (×) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ((عبس/٢٠)، فسبيل الله يسير على من يسره الله عليه، جعلني الله وإياكم ممن اهتدوا إلى سواء السبيل، أقول قولي هذا وأستغفر الله من كل زلة كانت في هذا البحث وأحمد الله على ما وفقني فيه.

الهوامش

(١) ابن منظور: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت: ٧١١ه)، لسان العرب، مادة(سبل).

(٢) المرجع السابق، مادة (سبل).

(٣) المرجع السابق، مادة (سبل).

(٤) ابن فارس: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: ٣٩٥ه)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر – ١٩٧٩م)، (ج٣/ ص١٢٩).

(٥) ابن منظور، لسان العرب، مادة (سبل).

(٦) كمال بشر، علم الأصوات، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٠م، (١١٩).

(٧) كمال بشر، علم الأصوات، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٠م، (١٨٦)

(٨) السمعاني، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت: ٤٨٩ه)،تفسير السمعاني، تحقيق: ياسر غنيم، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٩٩٧م، (ج٥/ ٨٤).

(٩) أبو حيان: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: ٧٤٥ه)، البحر المحيط، تحقيق: صدقي جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠ ه، (ج٣/ ٢٢٣ – ٢٢٤).

(١٠) جاء لفظ السبيل مذكراً في: (النساء /٢٢)، (الأعراف/ ١٤٦)، (الإسراء/ ٣٢).

(١١) جاء مؤنثاً في: (آل عمران/ ٩٩)، (الأنعام /٥٥)، (الأنعام/ ١٥٣)، (الأعراف/ ٤٥)، (الأعراف /٨٦)، (يوسف/ ١٠٨)، (إبراهيم/ ٣)، (الحجر/ ٧٦)، (النحل/ ٩)، (لقمان/ ٦)

(١٢) ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣ه)، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، (ج٤/ ٢٦).

(١٣) مواضع جمع السبيل: (المائدة/ ١٦)، (الأنعام/ ١٥٣)، (إبراهيم/ ١٢)، (النحل/ ١٥)، (النجل/ ٦٩)، (طه/ ٥٣)، (الأنبياء/ ٣١)،

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

العنكبوت/ ٦٩)، (الزخرف/ ١٠)، (نوح/ ٢٠).

(١٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (ج١٦/ ٢٣٧).

(١٥) ابن عادل الحنبلي: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت: ٥٧٧٥)، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، (ج١٠/ ١٧١).

(١٦) أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (ت: ٥٦١٦)، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق: علي البيجاوي، (ج١/ ٣٥٥).

(١٧) طه الهيتي، نزع الخافض بين الدلالة النحوية والتعبير القرآني، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد ١٨، العدد الثاني، نيسان ٢٠١١م، (١٦٦).

(١٨) في (التوبة/ ٩٣)، و (الشورى/ ٤٢).

(١٩) (يوسف/ ١٠٨).

(٢٠) (آل عمران/ ٧٥).

(٢١) (الحجر/٧٦).

(٢٢) سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت: ١٣٨٥ه)، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط١٧، ١٤١٢ه، (ج٢/ ١٠٩٥).

(٢٣) أبو حيان، البحر المحيط، (ج٤/ ٢٠٤).

(٢٤) وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط٢، ١٤١٨ه، (ج١٧/٤٣).

(٢٥) زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت: ٥٦٦٦)، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ أحمد، المكتبة العصرية، بيروت، ط٥، ١٤٢٠ه، (٢٣٤).

(٢٦) محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (ت: ١٤٠٣ه)، إعراب القرآن وبيانه، دار ابن كثير، دمشق، ط٤، ١٤١٥ه، (ج٦/ ٣٠٥).

(٢٧) أحمد بن محمد الخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤٢٦ ه، (ج٢/ ٧١٩).

(٢٨) أحمد عبيد الدعاس وآخرون، إعراب القرآن الكريم، دار المنير ودار الفارابي، دمشق، ط١، ١٤٢٥ه، (ج٣/٣٨٦).

(٢٩) أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى البصري (ت: ٥٢٠٩)، تحقيق: محمد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨١ه، (ج٢/١٤١).

(٣٠) أبو إسحاق الثعلبي: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (ت: ٥٤٢٧)، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢ه، (ج٣/٩٦).

(٣١) ابن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، (ج٤/٢٧١).

(٣٢) المرجع السابق، (ج٥ /٤٢).

(٣٣) المرجع السابق، (ج١٥/ ١١٠).

(٣٤) المرجع السابق، (ج١٠ /١١٧).

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2